

# القصاص القرآني

سلسلة لقاءات قدمت في رمضان 1439 هـ

إبراهيم  
عليه السلام

أ. أناهير السميري

اللقاء العاشر

مدونة علم ينتفع به

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إيكّن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

[/http://tafaregdrooms.blogspot.com](http://tafaregdrooms.blogspot.com)

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- ✓ هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله عزّ وجلّ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله.
- والله الموفق لما يحبّ ويرضى.

## مقدمة:

السَّلَام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ربّ العالمين والصَّلَاة والسَّلَام على سيّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

نحمد الله حمداً كثيراً طيباً مباركاً، ونسأله بمَنه وكرمه أن يجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهلُه وخاصَّته، وأن يعيننا على تلاوته آناء اللَّيْلِ وأطراف النَّهار، وأن يعيننا على فهمه، والالتزام بما فيه من عقائد وأعمال، فنفوز برضاه سبحانه وتعالى، ونكون حَقًّا من أهل القرآن، أهلُه وخاصَّته، فإنَّ أهل القرآن قد لزموا القرآن، فأصبح هو أهل لهم وهم أهل له، كما لا يفارق الأهل بعضهم فإنَّ أهل القرآن لا يفارقون القرآن، تلاوةً، وفهمًا، وعملاً، ومراجعةً، واستشهادًا، وتغنيًا بالقرآن.

الله على كلِّ شيء قدير، فنسأله وهو على كلِّ شيء قدير أن يُلزمنا تلاوة القرآن آناء اللَّيْلِ وأطراف النَّهار، وأن يرزقنا الفهم والعلم، وأن نقتدي برسولنا الكريم وصحابته في حبِّهم للقرآن، واستغنائهم به عن غيره، ولا طريق للأُمَّة تسير فيه من أجل أن تنجو من المهالك أفرادًا وجماعات، ما لها طريق إلاَّ السَّير على خطى نبيِّنا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومن سبقه من الأنبياء؛ فكان الواجب علينا دائمًا ذكر الأنبياء، وذكر فضائلهم، وأفعالهم، وأن يكون كلامهم، ومواقفهم، وردودهم حاضرةً في أذهاننا، فنسير على سيرهم، فنصل سالمين بإذن ربِّ العالمين، اللَّهُمَّ سلِّمْ، اللَّهُمَّ سلِّمْ.

ولأجل هذه الغاية، غاية السَّير على خطى نبيِّنا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم والأنبياء من قبله، امتلأ القرآن بالأخبار عن الأنبياء، وخاصةً أوَّلِي العِزِّ منهم، فكانوا دائمًا هم حاضرين، والخبر عنهم حاضر، في المواقف والأحداث التي مرَّ بها نبيِّنا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومثله لا بدَّ أن نكون مقتدين به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذكر الأنبياء، وفي السَّير على سيرهم، وفي فضِّ الخصومات إليهم.

وها نحن نَتَدَارَسُ قصَّة إبراهيم عليه السَّلَام في القرآن، ونتصوّر ماذا يجب علينا أن نعتقد من خلال القصَّة، وكنا قد بدأنا بدراسة القصَّة في سورة آل عمران، يعني مرزنا على سورة البقرة والآن نحن في آل عمران. وقد مرَّ معنا آيات كثيرة من آل عمران حتَّى وصلنا إلى الآية ٩٥ وهي قوله تعالى:

## { قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۖ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

ولفهم هذه الآية، وفهم معنى أمرنا باتباع {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} لا بد أن ننظر للسياق، فنبتدأ من الآية ٩٣:

{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }

نلاحظ أنّ السياق فيه ذكر الطّعام {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ} وكلّ الآيات التي أتت قبل هذه الآية {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} كانت آيات فيها تقرير الدلائل على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها بيان لأهل الكتاب، وإلزام لهم بأدلة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أتت هذه الآية فيها جواب عن شُبُهاتِ القوم، يعني: هم أتوا فقالوا: (لكن عندنا ما يدلّ على أنّك لست نبيًا) وهنا كانت الشُّبُهةُ دائرة في موضوع الطّعام، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يقول لهم: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا} ثم صار بعض الطّعام حرامًا بعد أن كان حلالًا، والسبب في كونه حرام هو ما وقعوا هم فيه من الظلم {فَظَلَمُوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: الأصل أنّ الطّعام طيب {كَانَ حِلالًا} ، {إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ} والمقصود بإسرائيل هو يعقوب عليه السلام {عَلَى نَفْسِهِ} يعني: هذا التحريم كما يذكر المفسرون: سببه أنّه أُصيب بعرق النساء، فهو كأنه نذر لئن شفاه الله ليُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الأَطعمة عليه، فهم فيما يذكرون: أنّه حرّم على نفسه حُوم الإبل وألبانها، ففعل هذا أيضًا بنوه، ثم نزل أيضًا في التوراة أشياء من المحرّمات لكنّها بسبب ظلمهم وليس بسبب أنّ الله حرّمها، فهم الآن يريدون أن يوصلوا معنى: أنّ هذه المحرّمات لازالت محرّمات! وأنك لست نبي! وأنك لم تأتي بما لم يأتي به الأنبياء!

كأنّ هذه الآية مرّة أخرى تربطنا بالآية {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا} لكن سنرى كيف نصل إلى هذا المعنى؟

فإدّا أتى النبي صلى الله عليه وسلم لهم بهذا الخبر وهم مصرّون على: أنّه لا، وأنّ هذه كانت محرّمة من قِبَلِ بني إسرائيل من عند إبراهيم عليه السلام؛ فالآن ستقوم عليهم الحجّةُ بمجرد تلاوتهم التوراة {قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}

<sup>١</sup> [آل عمران: ٩٥]

<sup>٢</sup> [آل عمران: ٩٣-٩٤]

<sup>٣</sup> [النساء: ١٦٠]

<sup>٤</sup> [آل عمران: ٦٧]

يعني: إن كنتم صادقين في زعمكم بأن الأمر ليس كما قال النبي صلى الله عليه وسلم! أو لو تُريد أن نُعمّمها: إن كنتم صادقين في جميع ما تقدّم من قولكم أنّ إبراهيم كان على دين اليهودية! وأنّ التحريم كان في دينه!

ولذلك سيأتي بعد ذلك: **{قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}** والله عزّ وجلّ قال: **{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** يعني: هاتوا التّوراة التي هي محلّ فضّ النزاع، لأنّه هذا هو كتابكم، وهو الذي فيه الحقّ، فهاتوا الكتاب ويظهر الحقّ؛ فما كان منهم إلاّ أن تهرّبوا من هذا الأمر! لأنّ الكتاب إذا أحضروه ليستخرج منه المسلمون من علماء أهل الكتاب آية موافقة لقول النبي صلى الله عليه وسلم، ستقوم عليهم الحجّة، لكنّهم لن يفعلوا هذا! فقال الله عزّ وجلّ: **{فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** يعني: الذي يختلق الكذب من بعد ظهور الحجّة الدّالة على أنّ الطّعام حلّ في أصله، وأنّ يعقوب حرّم على نفسه بعض الطّعام لسبب ما، وأنّ هناك طعاماً حرّم على بني إسرائيل عقوبة لهم.

لكنّهم كانوا دائرين في مسألة: **{كُلُّ الطّعامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}** وإسرائيل قد حرّم على نفسه وليس بتحريم التّوراة، فأثّروا بالتّوراة، ودعونا نرى هل الطّعام كان حلالاً؟ أم أنّه نزل في التّوراة ما حرّمه؟ لأنّه لما يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ويقول لهم: هذا حلال، يقولون له: (لا، هذا حرام! والله قد حرّمه! فأنت تأتي بدين ليس بصحيح) وهم أصلاً معتمدين على نفّي النّسخ! يعني في كلّ حجّتهم هذه، ينفون النّسخ ويقولون: (أنّ الله لا ينسخ دينه)!

بغضّ النظر فالإشكال الآن أنّ هذا الطّعام حلال، والله لم يحرّمه، وإنّما هذا الفعل كان من يعقوب عليه السّلام، وأنتم انظروا إلى كتابكم وسيبتين لكم أنّ الله لم يحرّمه؛ فبعد هذا التّقاش الذي يفترى الكذب **{فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** يعني: مستحقّون لعذاب الله، وكفرهم هذا إنّما هو ظلّم منهم لأنفسهم، وأيضاً ظلّم لمن وراءهم ممّن يتّبعهم.

فقال الله عزّ وجلّ **{قُلْ صَدَقَ اللَّهُ}** وإن أخذنا المعنى على الخصوصيّة، يعني: صدق الله في أنّ هذا التّحريم إنّما كان من إسرائيل وأولاده، بعد أن كان حلالاً في ملة إبراهيم، وأنّ ما حرّم على بني إسرائيل في التّوراة إنّما حرّم جزاء على قبائح أفعالهم، وليس لأنّه محرّمٌ وحَيْثُ.

فالطّيّبات الآن حرّمت على بني إسرائيل بهذا المعنى بسببين:

١. بسبب أنّ يعقوب حرّم على نفسه.
٢. وبسبب العقوبة لبني إسرائيل.

وهذا فيه حال وهذا فيه حال، بمعنى هذا له موقفه وحاله، وهذا له موقفه وحاله، والحقيقة أنّ هذه الطّيّبات في أصلها حلال، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلّم يُخبر الأمة عن أحليّة هذه الأطعمة، وأنّ الله قد رفع عنهم الآصار .

**{قُلْ صَدَقَ اللَّهُ}** هذا لو أخذنا هذه الجملة على معناها الخاصّ في السياق، وعلى معناها العامّ، كما يقول الشيخ السّعدي: **{قُلْ صَدَقَ اللَّهُ}** أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بألسنتهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلّة يقينيّة، مقيمين هذه الشّهادة على من أنكرها) يعني: أن تقول في كلّ مناسبة يصلح فيها أن تقول هذا: **{صَدَقَ اللَّهُ}** يعني: أنّك تشهد بأنّ ما أتى من عند الله صدقٌ، وحقٌّ في العقائد، والأعمال، وفي كلّ مرّة تقف على ما يدلّ على أنّ هذه الشريعة العزّاء قد أصلحت حياة الخلق، وأوصلتهم إلى أحسن الأحوال، وبيّنت لهم كلّ الطّرق الموصلة لسعادة الدارين، وأنّ كلّ حقّ وكلّ صواب إنّما هو من وراء هذه الشريعة، فإذا رأيت شرع الله في الزّواج، ورأيت شرع الله في الطّلاق، ورأيت شرع الله في البيع والتّجارة، فإنّك تقول: **{صَدَقَ اللَّهُ}** (فيما أخبر به وحكم) يعني: الصدق في الأخبار، والصدق في الأحكام؛ ولذلك الشيخ السّعدي يقول: (هذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بألسنتهم: صدق الله) فقط بألسنتهم؟ قال: لا بلّ (معتقدين بذلك في قلوبهم) وهذا الاعتقاد من أين أتى؟ قال: (عن أدلّة يقينيّة) فلا بدّ أن يكون معك دليل يقينيّ على اعتقادك، ومن ثمّ تنطق بلسانك، وهكذا لا بدّ أن يتوافق اللسان مع القلب.

وقد خرج الشيخ من هنا بنتيجة جميلة جدّا، وضروريّة، قال: (ومن هنا تعلّم أنّ أعظم الناس تصديقًا لله أعظمهم علمًا و يقينًا بالأدلّة التفصيليّة السّميّة والعقليّة) وهذا والله من فقهه أن يُقرّر هذا التقرير الذي يتبعه عمل، هلّ الناس متساوون في إيمانهم؟ الجواب لا؛ ما السبب في اختلافهم في الإيمان؟ الإيمان في أصله التّصديق اليقينيّ الذي يتبعه العمل، إذًا أين الفرق؟ الفرق في اليقين في التّصديق، فانظر ماذا قال: (أعظم الناس تصديقًا لله أعظمهم علمًا و يقينًا) فمعنى ذلك: أنّه لا بدّ من العِلْم، فالعِلْمُ يؤثّر على الإيمان، واليقين يأتي بزيادة العِلْم وبزيادة التّفكير فيه.

● العِلْمُ يؤثّر على (الإيمان)

● اليقين يأتي بزيادة (العِلْم) وبزيادة (التّفكير فيه).

<sup>٥</sup> شرح معجم اللغة العربية المعاصر: إضر: جمع أصار: ١ - عهد وميثاق ثقيل مؤكّد: { قَالَ أَفَرَزْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكَمُ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَزْنَا } . ٢ - ذنب، حمل ثقيل: وَإِذَا أَسَاءَ فَعَلَيْهِ الْإِصْرُ وَعَلَيْكُمْ الصَّبْرُ [حديث]، { رَبَّنَا وَلَا تُحِيزْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَيَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا } : شدة العمل وثقله.

<sup>٦</sup> شرح معجم اللغة العربية المعاصر: عزاء: معتبرة، محتزمة، مشهورة، جميلة.

<sup>٧</sup> تيسير الكريم الرحمن - عبد الرحمن السّعدي - تفسير الآية ٩٥ سورة آل عمران.

فإِذَا مَا أتعلم؟ قال: **(بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية)** الأدلة التفصيلية الدالة على ماذا؟ الدالة على صدق الله، الدالة على عظمة الله، الدالة على كمال الله، الدالة على قيام الساعة، الدالة على حكمة الله، والدالة على رحمة الله:

✓ فأنت الآن لا تضيع وقتك لما تتأمل خَلْقَةَ الله للنمل وديبهم على الأرض؛ ديبهم؟! وهل النمل له ديب؟! فديبها كما تتصوّرونه لا يكون إلا من شخص ذا وزن يدبّ على الأرض! نعم لها ديب ويسمعه الله \_ سبحان الله \_

✓ وما تضيع وقتك لما ترى كيف أنّ الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل.

✓ وما تضيع وقتك حين تفكّر في هذه الشمس كيف تطلع على الخلق؟ وكيف يأتي بها الله؟ فالأرض لا تذهب لها! ولا تدور حتى تلقاها! لا أبداً، وإتّما يأت بها الله من المشرق ويأمرها فتنتقل هذه الانتقالات على عظمتها! وضخامتها! فإنّ الله يأت بها، وهي في أمر الله شأن عظيم، في عظمتها ودلالتها على قدرة الله، لكنّه في أمر الله إتّما هي مسخرة.

فالشاهد **(أنّ أعظم الناس تصديقاً لله أعظمهم علماً و يقيناً بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية)** السمعية يعني: الآيات، والعقلية يعني: التي تفكّر فيها.

ولذا لما تتأمل حِكْمَةَ الله في تشريع الزّواج، تأمل أيضاً حِكْمَةَ الله في تشريع الطّلاق، وتأمل أيضاً الوعود العظيمة: **{وإن يتفرّقاً يُعْنِ الله كُلاًّ من سَعْتِهِ}** فلا تتحسّر إذا فُدرّ ووقع هذا \_ فإنّ هذا شرع \_ إذا حكم الله عزّ وجلّ به في شرعه، ووصلت الحال إلى هذه الحال، فكما أنّ الزّواج حِكْمَةٌ فأيضاً الطّلاق حِكْمَةٌ؛ فكلّ ما تسمع من شرع، ومن أدلة كونيّة، كلّها اسمعها وفكّر فيها، ستجد أنّ الإيمان يزيد.

فإذاً هذه فائدة مهمّة جدّاً لذلك أخذنا فيها وقتاً، وإن كانت ليست هي المقصود الأساسي.

دعونا نعود مرّة أخرى، لا تنسي بأنّ السّياق في الكلام عن بني إسرائيل **{قُلْ صدقَ الله}** في كلّ ما أخبر به وحكم، وصدق الله في هذا الشأن خاصّة: في كون أنّ التّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخبر أنّ الله لم يُجرّمها على بني إسرائيل إلاّ عقوبة، أو بأنّ هناك نوع حرّمه إسرائيل على نفسه وكان قبل ذلك حلالاً.

الآن سيأتي الخبر عن إبراهيم عليه السّلام، ونحن نتكلّم عن التحريم والتّحليل والطّعام أتى قول الله تعالى: **{فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** ما علاقة هذا بالسّياق؟ يعني: اتّبِعُوا ما يدعوكم إليه محمّد صلّى الله عليه وسلّم فإنّ ما يدعوكم إليه إتّما هو من مِلَّةِ إبراهيم \_ إبراهيم الحنيف \_ لأنّ هذا الحال والصّفة سواء في المعنى: **{إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** أو \_ إبراهيم الحنيف \_ فنفهم من هذا أنّ ما يدعو إليه التّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إتّما هي دعوة إبراهيم؛ فالخطاب لبني إسرائيل، ولكلّ من يصلح له

<sup>٨</sup> [النساء: ١٣٠]

الخطاب: اتبعوا ملة إبراهيم التي يدعو إليها محمد صلى الله عليه وسلم حتى تتخلصوا من اليهودية؛ اليهودية التي الآن بالنسبة لكم مازق ، دينكم فاسد، وكتابكم فاسد، وكلما يأتي أحد لديه غرض يحرف جزء منه، وألزمتكم هذه التحريفات بتحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه \_ هذا هو المهم \_ يعني: إبراهيم عليه السلام ومن تبعه كانوا يعرفون ما هو الحلال ويعرفون ما هو الحرام \_ وسنعود لنؤكد مرة أخرى \_ فإنّ هذا دليل على أنّ دين اليهودية ليست من الحنيفية في شيء، فإنّ الحنيفية لم يكن قد حُرّم فيها هذا الطعام أبداً؛ فمن المفروض أنّ بني إسرائيل يكونون على شريعة إبراهيم، فإنّه لم يكن محرّماً عليهم \_ على بني إسرائيل \_ إلاّ طعاماً حرّمه يعقوب على نفسه، لذلك **{قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** وهذا تأكيد أنّ ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم من إباحة المحرّمات التي كانت على اليهود إنّما هو عودة إلى ملة إبراهيم؛ وهم الآن في ماذا يضاربون؟ يقولون: لا إنّما كان هذا محرّماً من إبراهيم، فيأتي أحبارهم لعاقبتهم وينفّروهم من الإسلام ويقولون لهم: أتى فحلّل ما حرّمه إبراهيم، فقليل لهم مثلما مرّ معنا: **{قُلْ فَأْتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}**

الشّاهد **{فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** فإنّ هذا مُتَرَتَّبٌ على صدق الله، معنى ذلك: أنّ إبراهيم رمز للصادق، وأنت اتّبع الصادق، فإذا اتّبعْتَ الصادق فيما أمر به نجوت وربّ الكعبة؛ هذا إن كان ما يشغلك النّجاة فإنّ هذا هو المهم: إن كان شاغلك النّجاة احرص على ألاّ تتبع إلاّ الصادقين **{قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}** الصادق، الذي لم ينحرف، وفي اتّباعه منّجاة من الخطر **{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**.

### فضائل البيت:

تأتي الآية بعدها مباشرة وهي ستكون أيضاً من الآيات التي سنناقشها في حق إبراهيم - عليه السلام - :

**{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)}**

فكأنّ هذه الأخبار وقعت موقع التعليل للأمر بقوله تعالى **{فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** فكأنّه يُقال: هذا البيت المعروف شأنه كان مقاماً لإبراهيم، فإذا عُرفَ فضل البيت فلا بدّ أن تتأكّد من فضيلة شريعة بانيه، فالناس كلّهم متعارفون على فضيلة البيت وعلى فضيلة شريعة من بني البيت، فأتى الخبر بفضيلة الكعبة، وأتى الخبر بفضيلة إبراهيم وشريعته.

<sup>٩</sup> [آل عمران: ٩٦-٩٧]

واليهود يهربون بقدر ما يستطيعون من الاعتراف بمكانة البيت؛ ولذلك لما حصلت حادثة تحوّل القبلة إلى الكعبة، طعن اليهود في ثبوت النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أنّ بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحقّ بالاستقبال، ويقولون: أنّه وُضع قبل الكعبة، وأنّه أرض المحشر وأنّه قبلة جملة من الأنبياء، وبقوا يعيدون ويكرّروا بأنّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة باطل؛ ف قيل: **{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ} فبين الله تعالى أنّ الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف؛ نسأل الله عزّ وجلّ أن يحرّر بيت المقدس، ويكتب لنا فيه صلاة قبل الممات، وأن يُعزّه ويُشرفه، ويرفعه، ويردّ مكر الماكرين، وعُدوان المُعتدين.**

فإذًا أتى التأكيد على **{فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** ومن أعظم شعائر ملة إبراهيم \_ الحجّ إلى البيت \_ رغم أنوفكم؛ فهم يُنكرون أصلًا أنّ الحجّ كان من ملة إبراهيم! وهم لا يُشترعون الحجّ!

وأنتم تسمعون في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: **((كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَابِطًا مِنَ النَّبِيِّ، وَلَهُ جُورًا إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ))** فقد حجّ موسى عليه السلام وحجّ الأنبياء جميعًا؛ فالله عزّ وجلّ قد رفع هذا البيت، وجعل له هذه المكانة العظيمة، وأخبر بذلك، وجعله جزء من دين إبراهيم عليه السلام.

وقد ورد في الحديث أيضًا أنّ هذا البيت وُضع أولًا وكان مباركًا وهديًا للخلق، رُوي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سُئل: **((أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً))** وهذا يدلّ بوضوح على زيادة الأفضلية، والمنقبة. <sup>١</sup>

### الفضيلة الأولى هي أنّ الباني هو الخليل:

ونعيد مرّة أخرى خصوصًا وهذه هي الفضيلة الأولى: أنّ الأمم اتفقت على أنّ باني هذا البيت هو: الخليل عليه السلام، فلذلك هذا البيت له المنزلة العالية، وأنّ الخليل بنى هذا البيت إثمًا بأمر الله، كما مرّ معنا **{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا}** فتصوّري هذا الشرف للبيت:

✓ بانيه هو الخليل، وقد بناه بتكليف.

✓ والمُبلِّغ لهذا التكليف هو جبريل عليه السلام.

<sup>١</sup> صحيح مسلم \_ كتاب الإيمان \_ باب الإِشْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاوَاتِ \_ حديث رقم ٢٧٣

<sup>١</sup> صحيح البخاري \_ كتاب أحاديث الأنبياء \_ حديث رقم ٣٢١٢

<sup>١</sup> [الحج: ٢٦]

✓ والامرُّ هو المَلِكُ الجَلِيلُ.

ولذلك قيل: ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة فالامرُّ هو المَلِكُ الجَلِيلُ، والمُوصِلُ للامر هو جبريل، والباني هو الخليل. فإذا هذه الفضيلة الأولى على أنّ الباني هو الخليل.

### الفضيلة الثانية هي أنّ مقام إبراهيم في الأصل حجر لكن بقي آية:

الفضيلة الثانية هي أنّ مقام إبراهيم الذي هو هذا الحجر الذي وضعه إبراهيم، واعتلى عليه؛ ولاحظوا كيف أنّه في الأصل حجر لكن بقي آية، لأنّه فيما يظهر أنّ الله جعل من تحت قدم إبراهيم ذلك الحجر كالطين، حتّى غاصت فيه قدم إبراهيم، وبقيت علامة \_ سبحان الله \_ علامة تدلّ على أنّه نبيّ، لأنّ هذا لا يقدر عليه إلاّ الله؛ ولما ارتفعت قدمه عاد حجراً، وبقيت صورة القدم، وبقي على سبيل الاستمرار، فهذه من الآيات العجيبة، والمعجزات الباهرة التي أظهرها الله عزّ وجلّ.

لو فكّرتم في فضائل البيت لوجدتم أنّ صاحب الفيل \_ مثلاً هذه فضيلة عظيمة \_ لما قاد الجيوش إلى مكّة لتخريب الكعبة، وعجزت قريش عن مقاومة تلك الجيوش وفارقوا مكّة وتركوا له الكعبة، أرسل الله عليهم {طَبْرًا أَبَابِيل} تحمل أحجاراً ترميهم بها، يعني: تلك الأحجار مع أنّها كانت غاية في الصعير لكنّها أهلكتهم، وهذه كانت آيةً باهرةً.

إنّ الكلام يطول عن فضائل مكّة، لكن المهمّ هنا أن نعرف أنّ هذا البيت شرفه الله وعظمه، والتصق هذا كله بإبراهيم عليه السلام.

{مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} وهذه أيضًا أوصافٌ للبيت، فهو أو بيت وُضع للناس، وهو البيت المبارك، وبركته العظيمة متعدّدة من أهمّتها: مُضاعفة الأجر في هذا البيت، والحقيقة الذي يأتي إلى البيت:

- صادقًا.
- مُريدًا وجه الله.
- مُتخلّيًا عن الدنّيا.

هذه الشّروط مهمّة جدّا فإنّه يجد في وقته وصحّته وقوّته من البركة ما لا يجدها خارج البيت؛ يعني: الحقيقة أنّ من يدخل البيت وهو صادق، عازم على طاعة الله، فإنّ الهُمووم تنقطع \_ أنا أحبّ أن أصف هذا الوصف الدقيق لتتصوّروا فضل الله

على المؤمنين أن جعل له بيتاً \_ فعندما تدخلين من باب الحرم \_ بدون مبالغة \_ تشعرين وكأنه انقطعت صلّتك بالخارج، وكأنه حياة جديدة، ساعات تنقطع فيها عن أيّ مشاغل أخرى وتذهل عمّا في الخارج، - بمعنى أنك تذهل شعوريًا وتفقد صلّتك عمّا في الخارج \_ حقيقة لا أعرف كيف أوصل هذه المسألة العظيمة \_ فإنّك في الحقيقة تفقد حتى التقدير للوقت، فما يبقى الوقت إلاّ الصلّوات: الظهر والعصر والمغرب؛ وأنتم إذا نظرتم اليوم والناس ينفلتون من صلّاتهم، فيخرجون من صلّاتهم خصوصًا صلاة التراويح، في النفس من البشر شيء لا يوصف، لأنهم انقضوا طاعة.

من البركات في هذا البيت أنّ الكعبة ما تنفكّ من الطائفين، والعاكفين، والرّكع السّجود، فالناس من بركة هذا البيت طول الوقت متوجّهون لهذا البيت من كلّ طرف من أطراف العالم لأداء الصّلاة؛ هذا لو نظرت كلّ يوم، وكذلك لو نظرت على الأمام الطويلة على مرّ ألوف السنين \_ سبحان الله \_ فهذا من بركة البيت **{ وَهُدَىٰ لِلْعَالَمِينَ }** يعني: أنّ قبلة للعالمين يهتدون بها إلى جهة صلّاتهم.

ولكي تزدادي شعورًا بموقف الهداية، تصوّري لو أنّ القبلة غير موجودة! وتصوّري ما هو الحلّ؟ إلى أيّ جهة يتّجه الناس؟ وهذا شيء ضروريّ جدًّا الاتجاه إلى جهة معينة، فهو هدىّ للناس في صلّاتهم، وهُدَىٰ للناس المتأملين فيما يقع في قلوب الناس من حبّ البيت، ومن الانجذاب له الشيء الكثير.

كانت هذه كلّها مقدّمة لما سيأتينا بعد ذلك **{ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ }** آيات بيّنات تدلّ على الله، وعلى صدق الشريعة وكماها، ثمّ نأتي إلى مقام إبراهيم **{ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ }** وهي أيضًا مقام لمقام إبراهيم، أو **{ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ }** ماهي هذه الآيات البيّنات؟ مقام إبراهيم؛ وهو كلّ مكان قام فيه إبراهيم بالعبادات، سواء كان مقام إبراهيم الصّخرة الصّماء التي هي آية، أو كان مقام إبراهيم المطاف والسّعي والوقوف بعرفة والهبوط منها إلى المزدلفة والمبيت في منى، كلّ هذا يدخل في مقام إبراهيم.

ومازال الأمر على أصل المسألة **{ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا }** وإبراهيم، أتدرون من هو إبراهيم؟ هو الذي بنى أول بيت. وهذا البيت أتدرون ما هو؟ **{ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ }** أدلّة واضحات، وبراهين قاطعات.

من الآيات **{ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ }** وقد اتفقنا أنّ **{ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ }** يعني يُقصدُ به: ابتداء من المقام الذي عليه أثر قدمي إبراهيم، أو المراد بمقام إبراهيم الحجّ وكلّ أجزائه.

**{ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا }** وهذا كما مرّ معنا أمر شرعيّ وأمر قدريّ، يعني: كان آمنًا شرعًا وقدرًا.

● **شَرَعًا:** لأنَّ الله عزَّ وجلَّ أمرنا بأنَّ نَأْمَنَ حَتَّى الطَّيْرِ فِيهِ، فَأَنْتَ مَأْمُورٌ شَرَعًا أَلَّا تُؤْذِيَ أَبَدًا أَيَّ شَيْءٍ، فَلَا تُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُؤْذِي الشَّجَرَ، وَلَا الْحَجَرَ، وَلَا الطَّيْرَ؛ وَالْمَشْكَالَةُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ الرَّحَامِ \_ وَهَذَا قَدْ لَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ \_ إِلَّا مَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ، وَإِلَّا مِنْ تَبَّهَ فَتَحَقَّقْ كَيْفَ يَدْخُلُ مِنَ الْبَيْتِ؟ وَكَيْفَ يَخْرُجُ مِنْهُ؟ وَإِلَّا فَإِنَّهُ مَعَ الرَّحَامِ مَهْمَا كُنْتَ فَإِنَّ أذِيَةَ الْمُسْلِمِينَ سَتَقَعُ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي اللَّغَةِ أَنَّ بَكَّةَ كَمَا فِي آلِ عِمْرَانَ سُمِّيَتْ \_ بَكَّةَ \_ لِمَا يَحْصُلُ فِيهَا مِنَ الْبَكِّ، بِمَعْنَى: التَّرَاخُمِ، وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ عَذْرًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَهَا آمِنَةً شَرَعًا، بِمَعْنَى، أَنْتَ مَأْمُورٌ بِأَلَّا تُؤْذِيَ أَحَدًا فِيهَا، وَهَذَا يُنْصَحُ النِّسَاءَ خَاصَّةً لَمَّا تَدْخُلْنَ إِلَى الْبَيْتِ أَنْ يَخْتَرْنَ الْوَقْتَ الْمُنَاسِبَ لِلدَّخُولِ وَالْوَقْتَ الْمُنَاسِبَ لِلخُرُوجِ، وَالْوَقْتَ الْمُنَاسِبَ لِلانْتِقَالِ؛ لِأَنَّهُ بِفَضْلِ اللَّهِ \_ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوْلًا وَآخِرًا \_ وَمَا أَنْعَمَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ مِنْ اهْتِمَامِ بِنُوسَةِ الْحَرَمِينَ، فَالآنَ الْحَرَمُ قَرْيَةٌ حَقِيقَةٌ، فَلِكَيْ تَسِيرَ مِنْ جَنُوبِ الْحَرَمِ إِلَى شِمَالِهِ سِيرًا عَلَى الْأَقْدَامِ، يَعْنِي: بِدُونِ عَرَبِيَّةٍ، تَحْتَاجُ سَاعَةً مِنْ بَابٍ فِي جَنُوبِهِ إِلَى بَابٍ فِي شِمَالِهِ؛ فَمِثْلُ هَذَا وَأَنْتَ سَائِرٌ فِي طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ سَتُوجِهُكَ الْكَثِيرُ مِنَ الْعُقَبَاتِ، فَكَيْفَ إِذَا دَخَلْتَ فِي وَقْتٍ غَيْرٍ مُنَاسِبٍ؟ أَوْ خَرَجْتَ فِي وَقْتٍ غَيْرٍ مُنَاسِبٍ؟ أَوْ اتَّخَذْتَ قَرَارَاتٍ غَيْرَ مُنَاسِبَةٍ فِي وَقْتٍ غَيْرٍ مُنَاسِبٍ؟ فَمَرْتَادِي الْحَرَمِ يَفْهَمُونَ هَذَا جَيِّدًا، لَكِنَّ الَّذِي يَأْتِي أَوَّلَ مَرَّةٍ يُخْطِئُونَ أَخْطَاءً تَجْعَلُهُمْ عُرْضَةً لِإِيْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْمُسْلِمُونَ يُؤْذُونَهُمْ، وَيَحْصُلُ فِي بَيْتِ اللَّهِ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ. وَهَذِهِ مُنَاسِبَةٌ لِلتَّحْذِيرِ خَاصًّا وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِبُيُوسَةِ الْعُمْرَةِ، اللَّهُ يَزِيدُهَا تَيْسِيرًا، وَيُذِيقُ كُلَّ مُشْتَاقٍ لِلْبَيْتِ زِيَارَتَهُ، وَلَا يَحْرَمُنَا مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ؛ فَإِنَّ ذَكَرَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذَكَرَى نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْبَيْتِ شَيْءٌ عَظِيمٌ؛ أَنْتَ لَا تَحْتَاجُ أَنْ تَرْحَلَ فِي دِيَارِ الْعَالَمِ، بَلْ تَعَالِ إِلَى مَكَّةَ وَانظُرْ دِيَارَ الْعَالَمِ كُلِّهَا، وَاللَّهُ إِنَّ الْقَلْبَ يَكَادُ يَطِيرُ وَأَنْتَ تَقْرَأُ فِي حَقَائِبِ الْحَجَّاجِ الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنَ الْخَارِجِ مِثْلًا تَقْرَأُ: الْحَاجَّ الصِّينِيَّ! الصِّينِيَّ الدَّوْلَةَ الشِّيْعِيَّةَ يَأْتِي مِنْهَا حَاجٌّ صِّينِيٌّ! \_ سُبْحَانَ اللَّهِ \_ وَتَقْرَأُ أَسْمَاءَ الدَّوْلِ الْمَتَفَكِّكَةِ عَنِ الْإِتِّحَادِ السُّوْفِيَّاتِي - أَسْأَلُ اللَّهَ أَلَّا يُقِيمَ لَهُمْ شَوْكَةً، وَأَنْ يَزِيلَ شَرَّ الشِّيْعِيَّةِ وَالرَّأْسَ مَالِيَّةَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ - تَقْرَأُ أَسْمَاءَ دَوْلٍ لَا تَعْرِفِينَ كَيْفَ تَنْطَقِيهَا! \_ سُبْحَانَ اللَّهِ \_ كُلِّ هَذَا يَجْعَلُنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْتَ فِيهِ حَقِيقَةٌ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ؛ كَمَ مِنْ دَمُوعٍ مَسْكُوبَةٍ؟ وَكَمَ مِنْ رَجَاءٍ؟ يَعْنِي أَنْتُمْ أَنْظُرُوا فَقَطْ وَقْتُ الْإِفْطَارِ، كَمَ تَأْتِيكَ مَشَاهِدٌ لِرَافِعِي الْأَكْفَفِ أَدَلَّةٌ مِنْكَسِرِينَ \_ سُبْحَانَ اللَّهِ \_ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَعْجَبُ شَيْءٌ فِي الْمَوْقِفِ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ مُجْمَعِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى التَّوْحِيدِ \_ سُبْحَانَ اللَّهِ \_ كُلُّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ \_ سُبْحَانَ اللَّهِ \_ فَإِذَا هَذَا تَأْمِينُهُ شَرَعًا.

● **قَدَرًا:** وَأَمَّا تَأْمِينُهُ قَدَرًا يَعْنِي: قَضَاءُ اللَّهِ وَقَدْرَهُ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ وَضَعُ فِي التَّقْوَسِ حَتَّى فِي نَفُوسِ الْمُشْرِكِينَ احْتِرَامَ الْبَيْتِ، حَتَّى أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ مَعَ شِدَّةِ حَمِيَّتِهِ وَاحْتِمَالِهِ لِلصِّينِيِّ، يَجِدُ أَحَدَهُمْ قَاتِلًا أَبِيهِ فِي الْحَرَمِ فَلَا يُهَيِّجُهُ؛ لَكِنَّ هُنَاكَ طَبْعًا أَحْدَاثٌ كَثِيرَةٌ حَصَلَتْ فِيهَا التَّعَدِّيُّ عَلَى الْبَيْتِ، فَلَأَجْلِ ذَلِكَ هُوَ فِي الْأَصْلِ: آمِنًا شَرَعًا؛ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ فِيهِ الْإِيْدَاءَ سِوَاءَ كَانِ الطَّيْرُ أَوْ الْأَشْجَارُ أَوْ النَّبَاتُ وَمِنْ بَابِ أَوْلَى الْمُسْلِمِينَ.

إدًا معنى هذا: أنه هذا هو إبراهيم الذي بنى البيت العظيم؛ ثم أتت في الآيات الخبر عن أمر الناس بالحج لهذا البيت، وترك الحج مع الاستطاعة كُفْرًا، وهذا باب يحتاج إلى نقاشٍ وبيانٍ.

على كلِّ حال فإنَّ مقصودنا من الآية أن نرى:

✓ كيف مدح الله عزَّ وجلَّ إبراهيم وأثنى عليه.

✓ وكيف انتقل السياق من الكلام عن تحريم الأطعمة للكلام عن مكانة إبراهيم عليه السلام، والأمر باتِّباعه.

✓ والتَّظَرُّ إلى البيت على أنه علامة واضحة تُرشدنا على استحقاق إبراهيم عليه السلام للمُتَابَعَةِ؛ فإنَّ الله قد رفعه وفضَّله، وكلَّ أعمال الحجِّ إنما هي مُتَابَعَةٌ لإبراهيم عليه السلام.

✓ وأنَّ ما أتى به النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو شرع إبراهيم عليه السلام.

نسأل الله عزَّ وجلَّ بمَنه وكرمه أن نكون ممَّن صدق في اتِّباع هذا النَّبِيِّ الكَرِيمِ؛ تَتَّبِعُنَا وَعَرَفْنَا مَا وَرَدَ فِي حَقِّهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَقَدْ أَخَذْنَا جِزْءَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَأَخَذْنَا جِزْءَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَإِنْ شَاءَ اللهُ نَسْتَفْتِحُ غَدًّا مَا وَرَدَ فِي الْخَبْرِ عَنْهُ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ.

جزاكم الله خيرا.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته